المحاضرة (13)

عُنْوَانُ المُحَاضَرَةِ: نظرية الرواية

المدةُ: ساعة
الفئةُ المُستهدفةُ: طلبة السنة الثانية ليسانس، تخصص: دراسات لغوية

نظرية الرواية

تمهيد:

يعد النص السردي عامة والروائي خاصة من بين أكثر النصوص التي جذبت اهتمام النقاد والباحثين المشتغلين بالحقل النقدي عامة، على اعتبار أنه يضم مكونات سردية فاعلة تؤدي وظائف متعددة، لتحتل بذلك الرواية مكانتها ضمن هذه النصوص، وحتى بين الأجناس الأدبية الحديثة كمّا ونوعًا.

1- نظرية الرواية:

وبم أنَّ الرواية شكل وافد فهذا معناه أن كثيرا من قضاياها النقدية وافدة أيضا، لذلك كثرت وتعددت الدراسات التي تناولتها تنظيرا وإجراءً، ليكون عنصرُ الشخصية أحد جزئيات هذه الدراسة، لما يُضفيه على الأحداث من حركية (ديناميكية) وسيطرة في الآن نفسه، لتخضع بذلك معهُ الدراسات الأدبية المرتبطة به إلى تحولات عميقة وجذرية، ارتبطت بفلسفات وتوجهات مختلفة؛ أي من الاهتمام بها كجوهر (النقد السياقي) إلى الاهتمام بها كبنية لغوية مكتفية بذاتها (النقد النصَّاني)، وهو ما بدأ مع الشكلانية الروسية، كون دراسة النصوص الروائية متفاوت من منهج أو مدرسة لآخر، وربما هذا الوضعُ دليلٌ على أنّ الإبداعية القائمة في النصوص السردية عامة والروائية خاصة لم تُستخرج كُليةً كما يُفترض مع المناهج التقليدية، فكانت تبدو كالمتاهات العميقة والبعيدة كل البعد عن الموضوعية، التي لم يُكتشف منها إلاَّ بعض النواحي، خاصة فيما يتعلق بالشخصية الروائية التي دُرست بطريقة إسقاطية سياقية لا تمت للموضوعية بصلة، وأبقت مفهومها مُنغلقا، لقصور الآليات الإجرائية والوسائل النقدية في الوصول بها إلى المبتغى.

بقيت هذه النصوص السردية منطوية على أسرارها بانتظار من يحسن استدراجها ويكشف مكنوناتها، ذلك أنها لا تبوح بها إلاَّ بمن أحسن استنطاقها، لتنجح بذلك مدرسة تعدُّ أولى إرهاصات ظهور البنيوية وهي الشكلانية الروسية في الخروج بالدراسات الأدبية من السياقية إلى المحايثة، محاولة التأسيس لدراسة هي أقرب إليها من العلمية المُؤسَّسَة في تحليل النصوص الحكائية والسردية، لتتبعها مدرسة باريس السيميائية في نفس نهج التعامل مع النصوص السردية، إذ دعا رائدها "ج. غريماس" إلى ضرورة التعامل مع الشخصية الروائية كوحدة نصية لا امتداد لها خارج بنية النص، وهذا يتنافى مع ما جاء به النقد

السياقي، ليخرج بمفهوم جديد للشخصية لم يكن معروفا قبله وهو الشخصية المجردة، لتصبح بذلك الشخصية الروائية عنده مجرد دور في الحكي، بغض النظر عما تؤديه.

2- الشخصية الروائية نموذجا تطبيقيا:

تعتبرُ الشخصيةُ الروائيةُ من بين أهم العناصرِ الأساسية في الرواية، لما تلعبهُ من دورٍ رئيسي في إنتاجِ الأحداثِ، بتفاعلها مع الواقعِ والطبيعةِ أو تصارعِها معها، بل إنّ هناكَ من النقادِ من ذهبَ إلى القولِ بأنّ الروايةَ هي فنّ الشخصيةِ، من هنا تعدّدت الكتاباتُ التنظيرية والبحوثُ التطبيقيةُ التي تناولتها، ما أدى بدورهِ إلى تعدّدِ مفاهيمها.

وقد اختلفت نظرياتُ النقادِ حول فاعليتها في الكتاباتِ الروائية والقصصية، حتى أنّ الدراسات الأدبية النقدية الحديثة –التي ترتكزُ على الحدثِ في الدراساتِ السردية ثم اللغة؛ كونها الوعاء الذي تصب فيه الأفكار، ويتشكل منها النص السردي- لا تستطيعُ تجاهلَ دورِ الشخصيةِ وإغفال أهميتها، حتى وإن كانَ عن طريقِ تفسيرِ مقولاتها وتصرفاتها، من أجلِ الوصولِ إلى مضمونٍ اجتماعي وفكري.

هذا ولا يزالُ مستمرٌ البحثُ عن مكانةِ عنصرِ الشخصيةِ الروائية، ضمنَ بُنى النصوصِ السردية والحكائية على اختلاف أشكالها وأنواعها، ولا يمكنُ إغفالُ دورها في المعمارِ الروائي.

إلاّ أنهُ يجبُ على أي دارسٍ للسردِ أن يفرّقَ بين الشخصيات الروائية والشخصيات الإنسانية، فالروائي "ينتقي من عالم الشخصية ما يكفي ذكرُه في الرواية للتعبير عن الفكرة"، على اعتبار أنّ الشخصيات الروائية ليست وجودا واقعيا، وإنما هي مفهوم تخييلي، تدلُ عليه التعبيرات المستخدمة في الرواية؛ ولأنّ الروايةَ عملٌ فني، والمجتمع فيها متخيل يحاكي الواقع الخارجي دون أن يطابقه أو ينسخه، فقوانينها بالتأكيد ستختلفُ عن قوانين الحياة، ومن المستحيل أن تحيا إحدى شخصيات روايته وهو قد نسخها من الحياة مباشرةً، بل يأخذ منها ما هو بحاجة إليه، لصُنع الملامح التي استرعت انتباهه وأثارت خياله، ليقوم بعدها بـ"تشكيل شخصيته، ولا يعنيه أن تكون صورة طبق الأصل، بل ما يعنيه حقا هو أن يخلق وحدة منسجمة محتملة الوجود، تتفقُ وأغراضه الخاصة"، لتكون هذه الشخصية الروائية مُسَخَّرةً لإنجاز الحدثِ الذي وكِّلَ إليها انجازهُ؛ لأنها تخضعُ لتصوراته وأيديولوجياته في الحياة، وهذا راجعٌ لقدرتها على تقمص الأدوار المختلفة التي يُحَمِّلها إياها.

وبهذا ستحتلُ الشخصية الروائية (personnage) مَركزا مرموقا في الدراسات النقدية الحديثة، وبحسب الناقد الفرنسي "رولان بارت" (Roland Barthes) "ليس ثمة قصة واحدة في العالم من غير شخصيات"، فهي محورها الأساس في الرواية ومركز الحدث فيها، كمكون للنص الروائي، وعاملٌ من عواملِ مساهمتهِ في هذا التشكيلِ الفني.

غيرَ أنّ هناك من يجمعُ وبشكلٍ آلي بين مفهومين مختلفين، هما: الشخصُ (personne) والشخصيةُ (personnage)، للتقاربِ الموجودِ بينهما، وهذا يعدُّ خطأ شائعا، فقد ظلّت ولوقتٍ طويلٍ الشخصيةُ في الروايةِ غير مُتميزة عن الفردِ الحي فعليًا في الواقعِ اليومي،

وهنا ينبغي التمييزُ بينهما؛ إذ لا تتعدى الشخصية الروائية مجردَ علامةٍ فقط على الشخصيةِ في الواقع، و"بطلُ الرواية هو شخصٌ (personne) في الحدودِ نفسها التي يكونُ فيها علامةً على رؤيةٍ ما للشخصِ"، وهذا يجعلُ الشخصيةَ الروائيةَ ذات مفهومٍ تخييلي، تُخلقُ بواسطةِ الخيالِ الإبداعي للروائي، واللغةُ هي الوسيلةُ التي تجسّدُ حُدودَ الشخصيةِ المُبدَعةِ.

فالشخصُ (personne) هنا يقصدُ به ذلك الإنسانُ الفردُ كما هو موجودٌ في الواقعِ، الذي يعملُ ويعيشُ ويفكرُ، أمّا الشخصيةُ الروائيةُ (personnage) يقصدُ بها الشخصيةَ داخلَ المجتمعِ الروائي.

ومنه فالشخصياتُ الروائية ما هي إلاّ وحدات دلالية ذاتُ دالٍ ومدلولٍ، مثلها مثلُ أيّ علامةٍ لغويةٍ أخرى، فـ"تكون الشخصية بمثابة دالٍ من حيث إنها تتخذُ عدّة أسماء أو صفات تلخص هويتها"[5]، أمّا "الشخصية كمدلولٍ فهي مجموع ما يقال عنها بواسطة جمل متفرقة في النص أو بواسطة تصريحاتها وأقوالها وسلوكها"، والدليلُ أنّ العالمَ الذي تعيشُ فيه الشخصية الروائية، غيرَ العالمِ الذي تعيشُ فيهِ الشخصيةُ الواقعيةُ، والدراساتُ الحداثية نظرت إليها نظرةً مغايرةً تمامًا لما كانَ سائدًا من قبل، باعتبارها علامةً مُكونةً من دالٍ ومدلولٍ، ميزتهُ في البدايةِ أنّه لا يحيلُ على شيء؛ أي يشكو من الفراغِ الدلالي بدايةً ثم يتحولُ مشحونًا كُلما تقدّم السردُ، أو على حدِّ تعبيرِ "فيليب هامون": "بطاقةُ الشخصيةِ السيميائية ليست مُعطى أوليًا وثابتًا ... بل إنّها تَشَكُّلٌ يتمُ تصاعديًا مع زمنِ القراءةِ وزمنِ المُغامرةِ المُتخيلةِ"، فهي تركيبٌ أبدعتهُ مخيلة الروائي وجسدته اللغة، ويستطيعُ الروائي التحكم فيها بشكلٍ مباشر لكي تخدُم غرضه؛ كونها مخلوقاتٌ ورقية صنعها بيديه ونفخ فيها الروح، من خلالِ جمعه للمادة الخام التي تُيسِّرُ عمليةَ تشكيلِ الشخصية الروائية التي تخدمُ غرضهُ، ومنه القول أنّ الشخصيات الروائية أدوات صماء تتحرك بوحي الكاتب وتحمل أفكاره، وما الروائي إلا رجلٌ يطلقُ أشخاصهُ، في العالم ويكلفهم أداء رسالة من الرسالات، وكم في أبطال الروايات من يلبسُ مسوح الوعظ والإرشاد، ويقفُ نفسهُ على خدمة مذهبٍ معينٍ.

لتكون مع هذا المفهومِ الشخصيةُ الروائيةُ كائنًا من ورقٍ فضاؤهُ اللغة، يفرضُ علينا استبعاد كل التصورات التي تجعل منها مرادفا لكائن حي، كما في مشروع "غريماس" السيميائي، الذي دعا إلى ضرورة "التعامل مع الشخصية كوحدة نصية، لا امتداد لها خارج بنية النص الذي يحتويها"، فالأشخاص الذين يختارهم الكاتب من واقعه الاجتماعي ما إن يدخلوا الحكاية حتى ينفصلوا عن ذواتهم الأولى، وتتحقّق لهم ذواتٌ جديدةٌ يرسمُها النص، والشخصية الروائية في حقيقة الأمر موقع تركيبي لا تتحقق قيمته إلا داخل النص، لعلاقتها مع باقي العناصر السردية الأخرى من زمان ومكان وحدث، ولتأكيد الخطاطة السردية، فـ"شخصيةٌ ما في روايةٍ تختلفُ عن شخصيةٍ تاريخية أو شخصيةٍ موجودة في الحياةِ الواقعية"، والحقيقةُ التي لا مراء فيها هي أنّ الشخصية الروائية تختلف تماما عن الشخص في الواقع؛ لأن الفن والحياة شيئان مختلفان تمامًا، لتُحَلَّلَ بعد ذلكَ في إطارٍ دلالي.

فالناقد الفرنسي "رولان بارت" يرى أنّ قضيةَ الشخصيةِ هي قبل كل شيء قضيةٌ محضُ لسانية، فالشخصيات لا وجود لها خارج الكلمات؛ لأنها ليست سوى كائنات ورقية، وهي بهذا أقرب إلى التخيل منها بمعناها الفني إلى الحقيقة، لذا فهي لا تحيلنا بالضرورة إلى واقع ملموس، كون الحياة تفرض على الشخصيات وجودا مستمرا، بينما الشخصيات في الرواية لا تظهر إلا في الأوقات التي ينتظرُ منها أن تقومَ فيها بعملٍ ما.

غير أنّ هذا التمييز بينهما لا يعني انعدام العلاقة بينهما، يقول "فيليب .هامون" "بأنّ تصورًا للشخصية لا يمكن أن يكون مستقلاً عن تصورٍ عامٍ للشخصِ، للذاتِ، للفردِ"، فالروائي قد يلتقط سمات شخصيته وأوصافها من شخصيات عدة قابلها في الحياة، ولا ينسخ نماذجه نسخا من الحياة، لكنه يقتبسُ منها ما هو بحاجة إليه، ومن ثم يأخذُ في تشكيل شخصياته الروائية، وهناك عديد الروائيين من يعترف بأنّه لا يستطيع أن يخلق شخصية من الشخصيات التي تتحرك من حوله، ولولا عثوره على مثل هذه الشخصيات، لما استطاع أن يقدم لقرائه شخصيةً حيةً واحدة، وهذا لا ينفي سيكولوجيتها وواقعيتها؛ لأنها تنهضُ على أساسِ الكلمات، لكنها تلتقي بما هو واقعي واجتماعي وثقافي، فـ "السيكولوجية ليست في الشخصيات، ولا في المحمولات (صفات وأفعال)، إنها نتاجُ نمطٍ معينٍ من العلاقات بين الإمكانيات السردية".

هناك من الروائيين من ينظر إلى شخصياته التي خلقوها، نظرةً ملؤها الإعجاب والتقدير، وعلى العكس من ذلك تماما، هناك من ينظر إليها نظرة ملؤها الاحتقار والعداوة، من خلال تعاملهم معها بكل قسوة وعنف، كأن يجعلها تكافحُ كفاحًا مريرًا مع محيطها القاسي، نجد أيضا موقفًا وسطًا بين من يتعاطفُ مع شخصياته ومن يقسو عليها، هذا الموقفُ هو موقفُ الحيادِ؛ كأن يتناول شخصياته بطريقةٍ مجردةٍ تكشفُ عيوبها وتُبرز محاسنها وفضائلها، بوصفها موضوع القصة السردية، كما حذّر الروائي "فرانسوا مورياك" من مغبةِ عدم رضوخِ شخصياتِ الرواية للمنهج الذي وضعهُ الكاتب من أجلهِ، حين قال: "وكم من مرةٍ ظهرَ لي وأنا أؤلف قصةً من القصصِ، أنّ البطلَ الذي طالما فكرتُ فيه، وقدرتُ مراحلَ حياتهِ في أدقِ تفاصيلها، لا تستجيبُ للمنهج الذي وضعته لهُ، إلاّ وهو ميتٌ فاقدُ الحياةِ، فإذا أطاعني فطاعةُ جثةٍ هامدةٍ"؛ ما معناهُ أنّ الشخصياتَ الروائية لا تنمو إلاّ في وحداتِ المعنى؛ أي من خلالِ الجُملِ التي تنطقها هي أو ينطقها الآخرون عنها وتخضعُ لها، وهذا يجعلها محكومة بإستراتيجيةِ التحولاتِ في الروايةِ.

من يمعنُ النظرَ في الأحداثِ الروائية، يجدُ أنّ العمل الروائي فيها يبدأ عادةً حين تصطدم ألوان متباينة من الحياة الإنسانية، وقد يكون هذا الاصطدام بسيطا أو عرضيا، حدثَ بطرق بطريقِ الصدفة أو الاتفاق، فبإمكانِ شخصيات الرواية أن تحيا حياتها العادية المعروفة، قبلَ أنْ يقعَ الاصطدامُ الممهدُ للحوادث الكثيرة، التي ستنتظمُ فيما بعد في سلكِ التشكُلِ النصي للروايةِ، ومنه فعالمُ القصِّ لا يخلو من وجودِ شخصياتٍ، فهي عنصرٌ هام من مجموعِ

عناصره، ولولاها لانتفى السرد ولانعدمت المواضيعُ التي تتحدثُ عنها الأفعالُ، وتشكِّلُ عقدتَها.

هذا وقد حظيت الشخصية الروائية بأهمية قصوى لدى النقاد والمهتمين بالدراسات السردية والحكائية، فجعلوا البحث في مفهومها محور انشغالهم، فـ"هي التي تنتجُ الأحداثَ بتفاعلها مع الواقعِ أو الطبيعةِ أو تصارعِها معها"، فهي السندُ الأساسي الذي يقومُ عليهِ الكونُ الدلالي، وهذا البعدُ الدلالي هو ما يؤطرُ النصَ الروائي.

وبهذا تعدّد وتنوعَ مفهومُ الشخصيةِ في الدراساتِ النظرية، حسب مجالِ الاهتمام، سواء منها السياقي أو الحداثي، فحاول النقد الشكلاني ممثلا في "توماشفسكي" و"فلاديمير بروب"، ونقد علم الدلالةِ المعاصر ممثلا في أبحاث غريماس، تحديدَ مفهوم الشخصية في الحكي والرواية، حيث يرى "ف. بروب" أنّ الشخصية في الحكي هي "السندُ المرئي لكل الأفعالِ المنجزة، وهي كيانٌ يتميزُ بالتحولِ والعرضية"، كما أن مفهومها الحداثي لم يعد يمثّلُ في النص الروائي الأشخاص فقط، بوصفهم ذوات، بل تعدى ذلكَ ليتشخص فيما هو نبات وحيوان وجماد ومكان، بل حتى فكرة، على اعتبار أن السارد يُحرك ما لا يتحرك، ويجعلُ من الشخصيةِ شيئًا، ومن الشيء شخصيةً.

وبهذا الطرحِ أعطى لنا "غريماس" فهمًا جديدًا للشخصيةِ الروائية، حينما ميّزَ بين العامل والممثل، ليخرج لنا بما يسمى الشخصية المجردة، لتصبح الشخصية مجرد دور ما يؤدى في الحكي، بغض النظر عما تؤديه، فالعاملُ قد يكونُ مُمثلا بممثلين متعددين، أو قد يكون مجرد فكرة، أو يكون جمادًا، أو يكون حيوانًا، لنقف هنا أمام فكرة أنسنةِ وتشييء الشخصية الروائية، فهي عنده لا تملكُ وجودًا مستقلاً يسمحُ بمقاربتها بعيدًا عن مشكلةِ الدلالةِ ذاتها، لنصل بذلك إلى أنّ مفهومها حسب "رولان بارت": "هو قبل كل شيء لساني؛ لأنه لا يوجدُ خارج الكلمات؛ ولأنه أيضا كائنٌ ورقي"، من كلماتٍ وبناء لساني، قبل أن تخضعَ لاستقصاءِ النظام السيكولوجي.

مصادر ومراجع المحاضرة:

1. إبراهيم محمود خليل: النقد الأدبي الحديث، من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، 2003.
2. محمد علي سلامة: الشخصية الثانوية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، 2007.
3. شريبط أحمد شريبط: (سيميائية الشخصية الروائية)، السيميائية والنص الأدبي ،17/16/15 ماي 1995، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر.
4. حميد لحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1990.
5. عبد العالي بوطيب: مستويات دراسة النص الروائي، مطبعة الأمنية الرباط، المغرب، 1999.

6. سعيد بنكراد: سميولوجية الشخصيات السردية (رواية الشراع والعاصفة لحنا مينة نموذجا)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2003.
7. يوسف نجم: فن القصة، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
8. تزفيتان تودوروف: مفاهيم سردية، تر: عبد الرحمن مزيان، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2005.